حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي
سرعة قلم الفلم رشيد الخوري الشرتوني (تنشة)

ثم ان الاب يوحنا رفع بصره الى السماء متوسلًا وكانت حركات شفتيه وهيأة عينيه الشاخصتين في العلاء تُشعر بانهُ يُصلّي بايمان عظيم وحرارة شديدة طالبًا من الحقّ سبحانهُ رحمةً ورأفة بمن عذَّبهُ ونكَّد عيشه. فيا لله ما كان اعجب منظر شيخ في الثمانين من سنّه يبتهل من اجل جلّاده ومضطهده

ولما شاهده الحضور على هذه الصفة اخذوا يأملون املهُ بل يوقنون مثلهُ ان الرأفة الالهيَّة حركت في الدقيقة الاخيرة قلب جوسلين على الانابة والندم علمًا منهم ان للرحمة والنعمة في بعض الاحيان أسرارًا خفيةً لا تبصرها عيون الناس لان الله عزَّ وجلَّ قد يكشف نفسه عند آخر دقيقة من الحياة للنفوس التي كان معظم شقائها بجهلهِ فتكون آخر زفرة تصدر منها بمثابة نحيب يستدعي المغفرة من الذي يسبر اعماق القلوب

وهذا الامر عينه يحدث لالوف من النفوس التي تكون مديونة بالنعمة المذكورة لقوم مستترين من اهل التقى ونقاوة القلب ولا ريب ان الله تعالى لم يكن ليرفض هذه المنحة على حبيس البحيرة الذي كان يلتمسها دائمًا بصلوات وتضرعات متتابعة

ثم ان الامير رزق الله هتف قائلًا : عليَّ ان اعوض عما جرى. وعليك ايها الاب ان تترأس العمل فتتمم كلّ ما تأمر بهِ فنبتدئ بتجديد دير القديسة تقلا

— ما معنى كلامك فهل خرب الدير ؟

— قد احترق بدسائس من قد طلبتَ لهُ رحمة المولى ورضوانهُ

— والرهبان ماذا جرى لهم ؟

— تفرَّقوا تحت كلّ كوكب طالبين لهم ملجأً في جبل اللكام وجبل عكّار

— والكنيسة والمكتبة اخبرني ماذا جرى لها ؟

— قد اتلفتهما النار كما اتلفت سائر الدير

فلمَّا سمع الاب يوحنا هذه الكلمات الاخيرة تنهَّد متحيّرًا وظهرت امارات الغم

والكآبة على ذاك الوجه الذي كان يحافظ دائماً على الهدوء والبشاشة لان البار المذكور وان كانت قد ماتت فيه جميع الاهواء البشرية من زمان مديد غير انهُ ما زال متعلقاً بالعلم وَلوعاً بهِ. ومع أنهُ كان قد نسي أُسرتهُ واوطانه ظلَّ كاتاً بدير القديسة تقلا فاهتمَّ اكثر من كل الرؤساء الذين سلفوهُ بان يجعلهُ مركزاً للعلم والتمدن الحقيقي في جبل النصيرية الذي يعرف الكلّ ما اختصَّ بهِ اهلهُ من الهمجيَّة والتوحُّش. وقد صرف عنايته بنوع خاص الى مكتبة الدير المذكور وجدَّ وكدَّ مدة طويلة من الزمان حتى جمع فيها عدداً من التآليف النادرة والتصانيف العزيزة المنال

وكان يرى ان للذين تعرضوا لاذاه اسباباً وعللاً تحملهم على ذلك لكنهُ لم يكن يخطر لهُ ببال أنهم يتصدون للكتب التي جمعها. ومما سبق بيانه ترى ان هذا الرجل العظيم وحيد دهره قد نظر ببصرهِ الثاقب الى علماء الزمان الحاضر الذين يجتهدون بقوَّة البحث والتنقيب في تحليل المشاكل التاريخيَّة لكنهم يتوقفون عنها لعدم وجود تصانيف يعوّلون عليها ولهذا فقد اجتهد مقدَّماً في إعداد التصانيف المذكورة. غير انهُ خوفاً من ضياعها عُني بتكثير نُسخ الثمين منها وكان يظن انهُ بهذه الوسيلة قد ضمن بقاءها للعصور التالية ولم يخطر لهُ ببال انهُ سيندفع عليها غضب جوسلين ويُسلمها الى النار بواسطة طواغيته فمن ثم اصابه من الكآبة لدى علمه بحريقها ما لا يحيط بهِ وصفٌ

ودرى الامير رزق الله بما يمزّق قلبه من الآلام بسبب هذه الخسارة التي لا تعوّض فاحبَّ ان يصرف فكره عنها فخاطبهُ قائلاً:

هلمَّ نسافر الآن يا أبتِ. تعالَ نرجع الى لبنان الى هذه الارض التي تحتفي بنازليها وتحفُّهم بالاكرام. الى حيث ترى القلوب كلها مخلصةً لك. هلمَّ فاني محتاج الى مشوراتك ونصائحك تكميلاً للاصلاح الذي شرعتُ فيهِ من زمان مديد. هلمَّ فعلّمني هذه الصناعة العصبة صناعة سياسة الناس وتدبيرهم. . .

— بل دعني أتعلّم كيف أموت فقد مضى عليَّ خمسون سنة وانا اتمرَّس على هذه الصناعة وما اظنك تريد ان يلحق ادنى ضرر بالعمل الذي قضيتُ في انجاحهِ مثل هذا الزمان الطويل. أترك الشجرة حيث هي راقدة ولماذا كل هذا الاهتمام بالجسد الترابي الحقير وبما ان دير القديسة تقلا قد خرب وانقطع الامل دون مشاهدة اخواني فيهِ فلم يعد من فائدة للسفر الذي تدعونني اليهِ. واذا كنتُ قد هجرت العالم في ايام

الشباب وعنفوان العمر فلا اشتهي ان اعود اليه وقد فني الجسم واتهدَّ الحيل. وبناء عليه لم يبقَ لي الّا ان استعدَّ للسفر الابدي العظيم الذي قرب اوانه ودنا وقت حلوله

فاجاب فرا غريغون قائلًا: اننا جميعاً نأمل عكس ما تقول على انك اذا كنت مصمماً على انفاق بقية العمر في الخلوة والوحدة فاي بأس عليك اذا اتيتَ الى جبل لبنان فاتخذتَ لك مقاماً إمّا في وادي قنوبين او في وادي قديشا. هذا ما لم تتنازل لقبول الضيافة في محبستنا بدار سركيس بشراي فتوليني بذلك اعظم مسرَّة

امّا الاب يوحنّا فاجاب قائلًا: دعني يا اخي انتظر داعي العناية الالهية في المكان الذي اتزلتني به. واعلم ان جسدي الحقير لا يستأهل كلّ هذا الاهتمام. ثم انك تعلم ضعفه واسقامهُ فكيف يستطيع تحمُّل مشاقّ السفر

فقال المقدَّم: انّا نحملك على اكتافنا بل في قلوبنا. قل كلمةً فنسافر

— اشكر لكم كل الشكر يا اولادي فاني غير مستحق لهذه المجاملة

— فقال فرا غريغون: ماذا نجاوب دوق بورغندية نسيبك فقد اوصاني في زيارتي الاخيرة لاوربة ان أعلمهُ باخبارك

— قل لهُ ان الاب يوحنا قد مات لان موته صار منتظراً من وقت الى آخر. واماً انتم يا اولادي الاعزاء. فعودوا الى لبنان وحافظوا دائماً على وديعة الايمان واتزلوها منزلة أنفس الكنوز واعتبروها بمقام درقة لاستقلالكم وحريتكم فقد طالما عادت على بلادكم بالعظمة والفخار. ترى ماذا يحل بكم لولا هذه الوحدة الثمينة الغالية. فمن اجل صيانتها بينكم لا تحجموا عن احتمال اكبر الضحايا. ولا تصيخوا الى دسائس الساعين في القاء الزوان بينكم. يخاطبونكم عن الاستقلال الديني ونبذ التعلق بمركز الوحدة. . فاعلموا ان مصدر ذلك كلهِ الكبرياء والعجرفة والمبادىء التي تسوق الى الهلاك. واذا شئتم ان تتحققوا نتائجها المحزنة فانظروا فقط الى من حولكم وشاهدوا ما احدثتهُ في سائر الطوائف الشرقيَّة فتجزأت وتقسَّمت وفقدت الحياة الروحيَّة والعقليَّة وهيهات ان يتهيأ لها استرجاعها ما دامت على هذه الحال. واذا كان اللبنانيُّون قد تألفوا طائفةً فانهم قد توصلوا الى ذلك بانضمامهم الى رعاتهم المرتبطين اشد الارتباط بالكرسي الرسولي. ولو افترضنا انكم بقيتم منفردين ومتكلين على حيثيتكم الخصوصيَّة لما كنتم

شيئاً مذكوراً ولصرتم اشبه بقطرات قليلة ضائعة في اوقيانوس البشرية العظيم ولكنكم باتحادكم مع اخوانكم في المغرب تتقدمون بقوتهم

تذكروا ان رومية في ايامكم السود قد طالما عاملتكم نظير ام رؤوف ولا يخفى عليكم ان الولد يشين نفسهُ اذا ما احزن قلب والدته. اضمّوا اذاً حول رؤسائكم الروحيين والزمنيين اي حول بطريركم الجليل مار بطرس (١ واساقفتكم اعوانه ومقدمكم الباسل الامير رزق الله. اسمعوا نصائح فرا غريغون وفضائلهُ وبقاءهُ مدة خمس وعشرين سنة يشتغل فيها لصوالحكم بكل اخلاص (٢ تخوّلهُ الحق بان تكونوا لهُ اولاداً طائعين. الآن استودعكم الله ايها الابناء الاحباء. وأبارككم من صميم قلبي». ثم رفع يديه وعينيه الى العلاء.

وكان الامير رزق الله قد تأثر كثيراً من هذا الخطاب فصاح بجنوده فركعوا جميعاً كرجل واحد وقبلوا بركة الاب يوحنا وهو يقول: بسم الاب... والابن... والروح القدس... امين

وكانت هذه الكلمات آخر ما نطق بهِ فلم يستطع بعدها لا الامير رزق الله ولا فرا غريغون ان يزعزعا شيئاً من عزمهِ. وغاية ما امكنهما انهُ رضي بان يبقى لديه لاجل العناية بهِ احد اخوانهِ القدماء في الرهبانيّة وهو الاب جرمانوس الذي مرّت اخبار اخلاصه لحبيس مجيرة قدس

خاتمة

انهُ قد مرّ على الحوادث التي سبق بيانها نحو من خمس وعشرين سنة وصار القرن الخامس عشر على وشك الانقضاء والزوال

وكان اكثر الذين مثّلوا ادوار هذه الرواية قد غابوا اثناء الفترة المذكورة عن ساحة الوجود. وكان الاب يوحنا حبيس مجيرة قدس اول من غادر الدنيا منهم لانهُ بعد مفارقة اعزّائهِ اللبنانيين لم يلبث طويلاً حتى ادرك نهاية المحن الارضيّة مجيباً داعي الله الذي استقدمهُ اليهِ ليكافئهُ على حياةٍ صرفها بالاوجاع والعذاب وخدمة البشر

١) سلسلة البطاركة (المشرق ١ : ٢٥٠) ٢) المشرق ١ .. مقالتنا في فرا غريغون

باخلاص. وكما ان رجلاً آخر عظيماً أتى بعده بنصف قرن اعني به القديس فرنسيس كسافاريوس أتمّ انفاسه في جزيرة مقفرة اسمها سنسيان واقعة تجاه الصين هكذا الاب يوحنا اسلم روحه بيدوه في جزيرة بحيرة قدس غير انهُ كان أسعد حظاً من رسول الهند واليابان لانهُ مات بحضور الاب جرمانوس احد رفقائه القدماء في الرهبانيّة

ظلّت وفاته مستترة غير معروفة نظراً لما توالى من الحوادث الهامّة في جبل لبنان فان الامير رزق الله حالما عاد من جبل اللكام أصابهُ داء غريب اعجز حيلة الاطباء في ذاك الزمان. وبما ان القوم في شرقنا يرون ان عظماء الدنيا لا يموتون كسائر البشر وان الامراض وحدها لا تقوى على ان تصرعهم مالوا الى القول بوجود سرّ في الداء الذي اصاب امير الطائفة اللبنانيّة واخذ يسوقهُ بتدريج الى شفا القبر ولذلك كانوا في خلوتهم يتحدثون عن عبد المنعم ابن اخيه ويقولون بان لهُ يداً في سقمه لكي يستبد بالولاية بعده. على اننا لا نبحث الان في هل كانت اقوالهم صحيحة او فاسدة بل نقول انهُ بعد ان مضت بضع سنوات على حكومة المقدم رزق الله الموصوف بشجاعته واصالة رأيه وقويت آمال الرعية بحسن المآل وازدهار الاستقبال رزح المشار اليهِ تحت عبء المهمة التي وليها فكانت لوفاته رنّة اسف شديد في جميع انحاء لبنان لاسيما لان الولاية أفضت من بعده الى ابن اخيه عبد المنعم (١ مقدم جبيل الذي مرّ من اخباره ما هو كافٍ لاطلاع القرّاء على سوء حاله فهذا ما كاد يتولى شؤون الجبل حتى عادت اليهِ القلاقل والاضطرابات المدنيّة والدينيّة بل اشتدّ الخوف ايضاً من استنحال امر اليعاقبة الذين كان يعضدهم لولا ان الاب يوحنا وفرا غريفون كانا قد خلّفا وريثاً لغيرتهما اعني بهِ جبرائيل ابن القلاعي الذي عاد وقتئذٍ الى لبنان فاقحم المراطقة بسديد اقواله (٢. وهكذا حافظت الطائفة المارونيّة هذه المرّة ايضاً على وحدتها التي كثيراً ما عمل الاعداء على نقضها بمساعيهم الخبيثة

وبعد وفاة حبيس بحيرة قدس وامير بشراي جاءت نوبة صديقهما فرا غريفون فان هذا الرسول المقدام لمّا كان قد كُلّف من قبل البلاط البابوي ودوق بورغندية بقضاء مهمّة في بلاد العجم أبى ان يعتذر بكبر سنهِ البالغ ٧٥ عاماً فركب البحر قاصداً طيبتهُ

---

١) الدويهي : تاريخ الموارنة ٢) الدويهي والمشرق

ولكنهُ ما كاد يصل الى جزيرة قبرس حتى أُصيب بمرض الموت (١ فقضى هناك تحبهُ وافكاره متجهة الى لبنان الذي قد طالما احبَّهُ ووقف عليهِ اعزَّ سني حياتهِ واثمنها

على ان اللبنانيين لم ينسوا تذكار هذا الرجل العظيم فان بطريركهم لما كتب في القرن السادس عشر الى البابا لاون العاشر سألهُ ان يبعث اليهِ مرسلين يضاهون فرا غريغون في غيرته (٢

واما زين وراحيل فكانا يعيشان في قصر البترون بسلام وونام محفوفين باولادهما وكانا قد انقطعا الى حسن تدبير الرعية التي سُلمت اليهما والعناية بايرادها موارد السعادة والهناء. فجاء خبر وفاة الاب يوحنا أشبه بسحابة صيف طرأت على جوّ افراحهما الذي لم تعرهُ منذ اتحادهما شائبة كدر ولا نزيد بهذا ان معرفتهما لجميل ذاك الرجل البار قد ثقلت عليهما أو انهما ذهلا ما هما مديونان بهِ لعنايته الابويَّة بل المقصود ان الحزن هو كسائر العواطف البشريَّة لا يستتبّ لهُ دوام. والحق يقال انهُ لا شيء ينشف سريعاً مثل الدمع وان الانسان لا يقوى على تخليد أحزانهِ ولو كان يؤكد أحياناً بالأقسام المحرَّجة انهُ لا ينساها

وكان الموارنة قد شرعوا في ذاك العصر يستوطنون جبال كسروان محتلين شيئاً بعد شيء. هذه الناحية التي كانت قد اوشكت ان تُقفر بعد الحملة المشهورة على سكانها (٣ القدماء. وكان ذلك بداية لانتشارهم في جنوبي لبنان حتى أدَّاهم الامر مع كرور الازمان الى احتلال قسم كبير منهُ

وكان النصيريَّة بعد طردهم من عكار وجبل لبنان قد تجمعوا في جبل اللكام واستأنفوا المعارك القديمة مع الاسماعيلية حتى انجلى الامر اخيراً عن انتصارهم نظراً لوفرة عددهم (٤ وكانت اماثر الانحطاط على الاسماعيليَّة قد ظهرت من قبل ثم اخذت تزيد ظهوراً في القرون التابعة منذرةً بقرب تلاشيهم من سوريَّة

اما دير القديسة تقلا فبقي خراباً لانهُ لم يجسر احد على تجديده من بعد اختطاف

---

١) المشرق
٢) تواريخ رهبنة مار فرنسيس
٣) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ومقالتنا في نصيرية لبنان (مجلة الشرق المسيحي)
٤) راجع مجلة الشرق المسيحي ثمَّ رحلتنا الى بلاد النصيرية ومجلة الابحاث

الاب يوحنا وكذلك قصر القليعة الواقع بالقرب منهُ اصبح مأوى للوحوش بعد وفاة جوسلين ولم يبقَ منهُ اليوم سوى طلل دارس (١

وقصارى القول انهُ في مدة ربع قرن من الزمان حدث تغيير عظيم في لبنان وسوريَّة المتوسطة ولم يبقَ شيء ناجياً من التغيير سوى الطبيعة وحدها فان مياه بحيرة قدس استمرت تتلألأ بلا انقطاع تحت سماء صافية الاديم زرقاء الاهاب

وكذلك ضفافها المخضلَّة بالنبات ما فتئت حركة الحياة منتشرةً في أرجائها لان اسراباً كثيرةً من الجواميس ما برحت ترعى في منابت القصب الواقعة غربي البحيرة وهكذا الطيور ظلَّت تغرد في الآجام المطيفة بمتعرجات العاصي . وكانت قبة تل نبي مند تظهر دائماً بيضاء بين الخضرة الكثيرة التي تكتنفها

اما جزيرة بحيرة قدس فازدادت وحشةً لان القوارب ما عادت تقربها من بعد وفاة الاب يوحنا فلم يكن يأتيها سوى قوم قلائل من الفلاحين من اهالي كفر عبده وسوماوية يذهبون اليها في ايام البذار والغلال على ظروف ينفخونها لاجل ان يزرعوا ما فيها من الاراضي القليلة الصالحة للبذار

وكان في قمة التلّ بالقرب من الكوخ الحقير الذي اتخذه الاب يوحنا لسكناه ركام من الحجارة البركانيَّة يعلوه صليب من الخشب ويظلّل الصليب بعض اشجار من الخلاف . وكان كل صباح ومساء يأتي الى هناك رجل مسنّ فيركع ويقضي الساعات الطوال متأملاً ومصلياً . ومتى هم بالانصراف يسجد مقبّلاً تلك الحجارة السوداء . وكان الرجل المذكور طويل اللحية مبيض الشعر مرتجف القدم وهو الاب جرمانوس الذي سبق الكلام عليهِ في هذه الرواية وكان آخر رفقاء الاب يوحنا واوفى اصدقائهِ فكان كل يوم يأتي الحبر المذكور على ما تقدم الوصف زائراً ضريح صديقه ومصلياً عنده . ومتوقعاً اليوم الذي يستطيع فيهِ هو ايضاً ان يرقد رقاده الاخير الى جانب معلمه وصديقه حبيس بحيرة قدس (تمت)

(١) مجلة الشرق المسيحي